

أقسام المخلوقات في القرآن الكريم

للدكتور نبيل حجاب

أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن الكريم ، كما أقسم بغيره من مخلوقاته . .
أقسم بنفسه في سبعة مواضع أشار إليها السيوطي في كتابه (الإتقان) (١) كما أقسم
بكتابه العزيز على صدق الرسالة المحمدية ، فقال : (يس . والقرآن الحكيم
إنك لمن المرسلين .) كذلك أقسم بحياة النبي صلى الله عليه وسلم في موضع
واحد ، ذلكم هو قوله : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) (٢) ،
وذلك إن كان الخطاب له عليه السلام . (٣) .

أما إقسامه سبحانه وتعالى بسائر المخلوقات فهو في القرآن أكثر من أن يُحصى ،
أقسم بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، كما أقسم بالسما والبناء والأرض
وما طحاها ، وبالليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، وبالسما وأبراجها (٤) ،
والنجوم (٥) ومواقعها وبالفجر وباللالي العشر (٦) ، وبالشفع والوتر ، وبالتين
والزيتون ، وطور سينين ، والبلد الأمين يعنى مكة المكرمة ، كذلك أقسم بيوم

١ - الإتقان في علوم القرآن ج ٢ / ١٣٣ الطبعة الثانية .

٢ - آية ٧٢ من سورة الحجر .

٣ - يقال إن الخطاب هنا قد يكون من الملائكة لنبي الله لوط عليه السلام .

٤ - قال تعالى : (والسما ذات البروج) .

٥ - وقال (فلا أقسم بمواقع النجوم) أى أقسم ، بمعنى أن الامر واضح لا يحتاج الى قسم .

٦ - اللالي العشر : هى العشر الاواخر من رمضان ، أو الاوائل من ذى الحجة .

القيامة ، وبالنفس المتقية اللوامة . . ناهيك بإقسامه تعالى بالصفات (١) والنازعات ، وبالذاريات (٢) والمرسلات ، وبالعاديات (٣) الموريات المغيرات وغيرها من عجائب المخلوقات .

(وبعد) فلماذا يقسم الله تعالى ؟ وما سر أقسامه بالمخلوقات ؟

الغرض من القسم كما نعلم ، هو تأكيد الخبر وتحقيقه أو إثباته على وجه يفيد اليقين ، وقد جرت عادة العرب — إذا أرادت أن تؤكد أمراً بأبلغ المؤكدات — أن تقسم عليه بما هو عزيز عليها ، أو بمن هو مقدس عندها ، حتى لا تدع مجالاً لتكذيبه أو الشك فيه ، وأكثر ما يكون ذلك ضرورياً في الأمور العظام ، كالعهود والمواثيق والأحلاف ، وغيرها من الأمور التي يخشون نقضها بعد توكيدها ، إذ القسم عندهم أبلغ المؤكدات وأقواها على الإطلاق ، لما له في النفس من حرمة ليس من السهل انتهاكها ، وهيبة تحملهم على البر به ، والوفاء بعهده . . ومن ثمَّ كانوا يحترزون كل الاحتراز عن الأيمان الكاذبة ، ويعتقدون أنها شؤم على صاحبها تجرّ عليه الوبال ، لما فيها من الغدر والخيانة ، ولهذا كان القسم عندهم قاطعاً في ثبوت الحق ، أو تأكيد الوعد ، أو تصديق الخبر ، يقول زهير :

فان الحق مقطعه ثلاث يمين ، أو نفاذ ، أو جلاء (٤)

نعم . هذا ما كان عليه القوم منذ القدم ، وهو أمر طبيعي بالنسبة للعباد ، أولئك الذين لا يستحيل عليهم الزور أو الكذب ، ولا يستبعد منهم خلف الوعد أو نقض العهد ، أما بالنسبة للخالق ، جلّ وعلا ، فالأمر جد مختلف ، وإقسامه

١ - الصفات والنازعات : الملائكة .

٢ - الداريات والمرسلات : الرياح .

٣ - العاديات الموريات : الغيل التي تقدح الأرض بسنابكها أو حوافرها فترمي بالشرر .

٤ - يعني : يميناً ، أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات ، أو جلاء أي برهانا يجلو الحق وبه تنضج الدعوى (الشعر والشعراء لابن قتيبة ج ١ / ٨٩ تحقيق أحمد شاكر) .

سبحانه وتعالى - فضلا عن إقسامه بالمخلوقات - أمر يستوقف النظر ، ويدعو إلى التساؤل :

كيف يقسم الله تعالى ، وهو مالك الملك ، ورب المشارق والمغارب ؟ أكلامه يحتاج إلى تأكيد ؟ ! ثم لمن يقسم يا ترى . للمؤمن ؟ أم للكافر ؟ إن كان للمؤمن فالمؤمن مصدق بفطرته لا يحتاج إلى قسم ، مستجيب لما يقول من غير يمين ، وإن كان للكافر فالكافر بطبعه نافر ، وهيهات أن يقنع إلا بالدليل ، أو يؤمن إلا بما يراه رأى العين . .

ذكروا أن أعرابيا - حينما سمع قوله تعالى : « فارب السماء والأرض إنه الحق » - صرخ وقال : من الذى أغضب الجليل حتى أبلأه إلى اليمين (١) . ؟ ونعود فنقول : كيف يحلف الله سبحانه وتعالى ، والحلف غير محمود أصلا ، منهى عن الإكثار منه شرعا (٢) ؟ . يقول الإمام الشافعى : « ما حلفت بالله صادقا ولا كاذبا » ويقول المسيح عليه السلام : « ليكن قولكم : نعم . نعم أو لا . لا . لا تحلفوا » وكانت العرب تتمدح بقلة الحلف ، وبحفظ الأيمان ، من ذلك قول الشاعر (٣) :

قليل الألبا ، حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت (٤)

١ - روى عن الأصمعى أنه قال : (أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود له ، فقال : ممن الرجل ؟ فقلت : من بنى أصمع ، فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من موضع يتل فيه القرآن . فقال : هلا تلوت منه على ؟ فتلوت عليه : والذاريات ذروا . فلما بلغت قوله : (وفى السماء رزقكم وما توعدون) قال : حسيك ، ثم قام إلى ناقته فتحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى . فلما حجبت مع الرشيد ، وطلعت أطوف ، إذا باليمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفت فأننا بالأعرابى قد نحل واصفر ، فسلم على ، واستقرأ السورة فلما بلغت الآية (وفى السماء رزقكم وما توعدون) صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . ثم قال : هل غير هذا ؟ فقرأت : (فارب السماء والأرض إنه الحق) فصاح وقال : سبحان الله . من الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه حتى ألبأه إلى اليمين . قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه . تفسير المنار ج/

٢ - قال تعالى : (ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم) ، وقال : (ولا تطع كل حلاف مهين) .

٣ - تفسير المنار ج ٢/٣٦٦

٤ - الألية : اليمين والجمع الألبا كقضية وقضايا ، ورعية ورعايا .

وأخراً وليس أخيراً ، لماذا يحلف بالمخلوقات وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى (١) ؟ ثم هي ، من قبل ومن بعد ، آية من صنع يديه ، ومآلها إليه ! ! . كل هذه أسئلة تطرح نفسها في هذا المقام ، لما يجول في النفس من شتى الخواطر عند النظرة العابرة ، وللفقهاء في الرد عليها أقوال كثيرة ، « ولخل وجهة هو موليتها » .

فمن قائل : « إن الله تعالى أقسم لكمال الحجة ، وتأكيدها ، وذلك أن الحكم يُفصل بأحد أمرين : إما بالشهادة ، وإما بالقسم ، فذكر الله تعالى في كتابه الكريم النوعين ، حتى لا تبقى لهم حجة ، فقال : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وألو العلم) . وقال : (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل : إى وربى إنه لحق) وذلكم هو قول القشيري (٢) .

ومن قائل : (إن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، ومن عاداتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً) (٣) ، وربما كان ذلك أقرب إلى الصواب ، فما ذكره القشيري لا يخلو غامضاً ولا يسلم به على إطلاقه ، لأن الحكم الذى يفصل بالشهادة أو بالقسم أو بهما معا هو حكم العبد لا حكم المعبود ، فكلامه سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى قسم أو إلى شهادة حتى يكون مصدقاً ، فهو الخالق البارئ ، وهو سبحانه مفيض الوجود على كل موجود . .

أما سر القسم بالمخلوقات ، وهو جوهر البحث وبيت القصيد ، فيكاد الاجماع ينعقد على أن الله تعالى أقسم بها ، لتشريفها وإعلاء شأنها (٤) ، وهذا القول — على كثرة القائلين به — مردود على إطلاقه ، لأنه إن صدق على بعضها ، فلن يصدق

١ - اجيب على ذلك بأن النهي خاص بالعباد دون الله .

٢ - الاتقان للسيوطي ج ٢ / ١٣٣

٣ - المرجع السابق .

٤ - انظر الكشف للزمخشري (تفسير سورة التين) بالجزء الرابع .

ولن يتحقق في بعضها الآخر . نعم هو ظاهر الصحة في قوله تعالى : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) سواء كان الخطاب من الملائكة للوط عليه السلام أم كان من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم (١) ، فلوط عليه السلام أهل لتشريف الملائكة ، وتشريف الملائكة له أمر طبيعي ، بعد أن أكرم وفادتهم ولا يعلم أنهم من الملائكة ، وحال بينهم وبين عدوان قومه المجرمين ، أهل سدوم ، وتشريف الله تعالى لنبيه محمد بالقسم بحياته أمر لا يستبعد ، بل هو المنتظر من المهيمن العادل البصير ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم فردا من العرب ، ظهر فيهم ثم ظهر عليهم ، فلقى من الإيذاء ما لقي ، وكان طبيعيا — والحال هذه — أن يشرفه الله تعالى بهذا القسم . ثم هو ايضا ظاهر الصحة في قسمه بالملائكة (٢) . لإعلاء شأنهم والرد على من ينكرونهم ، وكذلك في قسمه باليوم الموعود (٣) ، وهو يوم القيامة لأن الكفار ينكرون البعث والجزاء ، وفي القسم به تأكيد لحقيقته ، وإظهار لشأنه وهوله . لا غرو أن كان القسم بهؤلاء جميعا للتشريف ، تشريف المقسم به ، ولفت الانظار إليه . ولكن أى شرف يريده الله تعالى للشمس والقمر ، أو غيرهما من الكواكب والنجوم ؟ فكل منها كان شريفا عندهم ، عظيم المنزلة في نفوسهم حتى عبدها بعضهم ، وفي تشريفه إياها بالقسم بها إغراء لهم بالتمادى في تقديسها وعبادتها وهو القائل : (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر) . . وكذلك الحال في إقسامه سبحانه وتعالى بـ (العاديات) الضابحة ، وهى خيل الغزو تعدو وتضبح في صوتها ، لأنها كانت واضحة الشرف عند العرب حتى بلغ بهم الأمر أن كانوا يولمون الولاثم حينما تتج ، ويفرحون بمولودها فرحهم بابنهم المولود . .

ثم ماذا ؟ ثم إن القسم أحيانا يكون بالتافه الخفير لتحقير المقسم عليه ، كقول

١ - المرجع السابق (تفسير سورة العجرات) بالجزء الثانى .

٢ - من ذلك قوله تعالى : (والصابغات صفا) وقوله : (والتنازعات غرقا) .

٣ - آية ٢ من سورة البروج .

عروة بن مرة الهذلي :

وقال أبو أمامة يا لبكر فقلت : ومرخة ، دعوى كبير

أى وحق المرخة ، وهى شجرة قليلة الورق ضئيلة الحرم ، محدودة الظل ، لاتقى من يستظل بها ، وبها يضرب المثل في الأمور التافهة (١)، ولكل من لجأ إلى ضعيف يحتذى به خاصة ، وقوله : (دعوى كبير) يريد دعوى صغير ، وإنما قال ذلك على سبيل التهكم والسخرية كما تقول للأسود يا أبيض ، وما أكثر ذلك في أساليب العرب ، ولم يخل منه القرآن الكريم كما في قوله تعالى : (ذق إنك أنت العزيز الحكيم) أى الدليل اللثيم ، وإقسام عروة بالمرخة على ضعف المستغاث بهم ، وهم (آل بكر) إنما هو إقسام بالمشبه به على المشبه ، كأنه قال : أبو أمامة في استنجاده بآل بكر كمن يستظل بالمرخة ، كلاهما لا ينجد ولا يغيث المستغيث ، وفي ذلك من التهكم ما فيه وما أشبهه بقول جرير

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

(وبعد) . . فقد اتضح لنا مما تقدم أن القسم بهذه المخلوقات ليس بلازم أن يكون لتشريفها أو إعلاء شأنها ، وأنه قد يكون بالتافه الحقير لتحقير المقسم عليه ، وإذا كان الأمر كذلك فما هو الغرض الحقيقي من القسم بها اذن ؟ ما أسرار هذا القسم وما مقاصده ؟

هذا هو السؤال الذى كان ولا يزال ينتظر الجواب ، وأصح الأقوال عندى أنه من قبيل (القسم الاستدلالي) بمعنى أن الله تعالى أقسم بها وهى آية من بديع صنعه - ليقيم بها الدليل على وحدانيته وكمال قدرته .

١ - من ذلك قول أبى جندب الهذلي :

وكننت اذا جار دعا لمضوفة
فلا تحسبن جارى لدى ظل مرخة
اشهر حتى ينصف الساق مئزرى
ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر
(الشعر والشعراء ج ٢ / ٦٤٨)

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولإيضاح ذلك يجدر بنا أولاً أن نفصل القول في أنواع القسم بعامة ، وأن
نكشف عن أغراضه المختلفة ، وعلى ضوء هذه وتلك نلتبس اسرار هذا القسم ،
القسم بال مخلوقات في القرآن الكريم .

القسم ، باعتبار المتقسم به ، نوعان : قسم بالخالق وقسم بال مخلوق . وباعتبار الخالف نوعان كذلك ، قسم الرب وقسم العبد . أما باعتبار أهدافه ومقاصده فأنواع ثلاثة :

(۱) القسم التقديسي :

وهو القسم بمقدس ، كإقسام الإنسان بمعبوده الذى يدين له بالولاء ، وهو عندنا - نحن المسلمين - الله تعالى ، مالك الملك ، وواهب النعم : الحى القيوم الذى تعنو له الوجوه ، وتنتجه إليه القلوب . . نقسم بذاته أو بصفة من صفاته ، إجلالا وتعظما ، واعترافاً له بالربوبية واطرارا له بالعبودية . . لا غرو أن كان هذا القسم أقوى الأنواع توكيدا للمحلوف عليه ، ومن ثم كان القسم الشرعى ، الذى نأثم بنقضه بعد توكيده .

(۲) القسم التشريفي :

وهو القسم بغريز أو شريف لم يبلغ حد القداسة ، ومنه إقسام الله تعالى بملائكته ورسله عليهم السلام ، وليس منه على الإطلاق ، بل ليس من القسم في شيء القسم بأولياء الله الصالحين ، وإنما نذكره فقط للتحذير منه ، ولفت الانظار إليه للصد عنه ، فهو — من غير شك — بدعة سيئة تنزه عنها أسلافنا الصالحون ، وضلالة عمياء أوغل فيها — مع الأسف — هؤلاء السذج من العامة أو الجهال من القوم ، أو الآبقون المغرضون من المنافقين ، أولئكهم الذين لم يتدبروا قوله صلى الله عليه وسلم: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) أو الذين لم يفقهوا قول المسيح

عليه السلام ، لمن يحلف برأسه أو بحياته أو برأس المخاطب وحياته : (لا تحلف برأسك ، لأنك لا تستطيع أن تجعل شعرة بيضاء سوداء) ، فضلا عما في هذا القسم من تعظيم للمقسم به ، والعظمة لله وحده ، ولهذا يتورع عنه الصالحون . .
(٣) القسم الاستدلالي :

وهو — كما أشرنا — القسم بالدليل أو بما في حكمه ، على صدق الخبر لتحقيقه بما لا يدع مجالا لإنكاره أو الشك فيه . أو بعبارة أخرى هو القسم بالسبب على المسبب ، لأغراض مختلفة فضلا عن تأكيد الخبر ، وإذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون . .

(أ) منها ما يكون للتذكير بالمقسم به أو التنبيه عليه كقولك لرفيق الصبا وصديق العمر : وحق الزمالة القديمة لن أتخلى عنك في وقت الشدة ، فأنت لم تقصد تقديس الزمالة ولا تشریفها ، وإنما أردت أن تذكره بها وتطمئنه على أنك سترعى حقوقها عليك .

(ب) ومنها ما يكون للاستعطف كقولك لمن احتجت إليه من صفوة الرفاق : أسألك — بحق ما بيننا من الود — ألا تتخلى عني وقت الشدة ، ومثله قول ابن الفارض :

بانكسارى ، بذلتى ، بخضوعى بافتقارى ، بفاقتى ، بغناكا
لا تكلنى إلى قوى جليل لا . فاني أصبحت من ضُعفاكا
فهذا القسم بالانكسار والذلة والفاقة ، وأيضا بغنى الله تعالى إن هو إلا وسيلة مؤثرة لاستدرار العطف ، وإثارة الشفقة وطلب الرحمة .

(ج) ومنها ما يكون للتأنيب والتبكيك ، كقولك لمن ضنَّ عليك بشرح ما استغلق عليك في الفقه ، وليكن (باب الميراث) ثم جاءك بعدها يستوضحك إحدى قواعد النحو :

« وباب الميراث لن اشرح لك شيئا » ، فقد اقسمت له بباب الميراث ،
وما اردت تقديسه أيضا ولا تشريفه ، وإنما أردت أن تذكره بما كان
من ضنّه عليك وإعراضه عنك . أردت أن تلومه على موقفه السابق ،
وتوبيخه على ما بدر منه .

(د) ومنها ما يكون للتبرير وقطع المعاذير ، كقول هجرس بن كليب حينما
هم بقتل خاله جساس بن مرة واتره وقاتل أبيه : « وفرسى وأذنيه ،
ورمحي ونصليه ، وسيفي وغراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر
إليه ، ثم طعنه فقتل عليه .

لا شك أن فرس هجرس عزيزة عليه ، عظيمة الشأن عنده ، وكذا
رمحه وسيفه ولكن هل أراد لهذه أو لهذين تقديسا أو تشريفا ؟ كلا وإنما
أراد أن يقول ، ويُشهد الدنيا من حوله على أنه لا عذر له في أن يترك
قاتل أبيه حيا ينظر إليه ، وهو تام العدة ، مستكمل الأهبة ، قادر على
الوثبة للثأر بأبيه ، فأقسم بالسبب الذي يبرر ما أقدم عليه ويقطع عليه
المعاذير التي سوف يتعلل بها سواء من ضعف القلوب .

(هـ) ومنها ما يكون لتحقير المقسم عليه لحقارة المقسم به ، كقول عروة بن
مرة السابق فقد أقسم بـ (المرخة) وهي على ما وصفنا من الضآلة ، وشبه
بها (آل بكر) حينما استنجد بهم أبو أمامة ، فكانوا مثلها ، كلاهما
لا يغيث ملهوفًا ولا يغنى فتيلًا .

مما تقدم نرى أن التقديس أو التشريف لا يلازمان المقسم به دائما ، بل ربما
جاء القسم بالتأفه التحقير . كما رأينا، لتحقير المحلوف عليه أو للتذكير بالمقسم به
أو التنبيه عليه وقد يكون للاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه ، كما قد يكون
للتأنيب والتبكيث ، أو للتبرير أو الاستعطاف ، أو لغير ذلك من الأغراض التي

تقتضيها المواقف . . والجدير بالذكر أن لهذه الأغراض المختلفة نظائر في القرآن الكريم أشار إليها جمهرة المفسرين من أمثال الزمخشري والبيضاوي ، والفخر الرازي ، والألوسي ناهيك بآبن القيم الذي أفرد لها بحثا مستقلا مستفيضا (١) ، وسنرى إلى أى حد كشفوا عن أسرار هذا القسم . وأزالوا الشبهات ، وسنرى كذلك إلى أى حد تجلت هذه النظائر في القرآن .

(١) فمن القسم الذي يراد به التذكير بالمقسم به ، والاستدلال به على المقسم عليه قوله تعالى (والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالقسمات أمرا ، ان ما توعدون لصادق ، وان الدين الواقع ، والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك) .

يقول الفخر الرازي : إن الإيمان الواقعة في القرآن ، وإن وردت في صورة القسم إلا أن المقصود بها الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه ، وهو هنا صدق الوعد والبعث والجزاء ، كانه قيل : من قدر على هذه الأمور العجيبة المقسم بها يقدر على إعادة من أنشأه أولا كقولك لمن أنعم عليك : وحق نعمك الكثيرة إني لا أزال أشكرك ، استدلل بالمقسم به وهو النعم على مواظبة الشكر (٢) .

ولإيضاح ذلك نقول : إن الله تعالى أقسم بأمر أربعة على أن ما نوعده به من البعث والجزاء حق لا ريب فيه ، وواقع لا محالة . أقسم بالرياح الذارية التي تذرو المطر وتثير الغبار ، كما تذرو الهشيم والرفات السحيق .

واقسم بالسحاب الحاملات وقرا - أى ثقلا - من الماء ، والماء عنوان الخصب والنماء ، قال تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) .

كما أقسم بالجاريات وهي النجوم التي تجرى لمستقر لها أو السفن التي تجرى على

١ - من أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ، مخطوط بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة رقم ١٤٨٠ .

٢ - التفسير الكبير (سورة الذاريات) .

سطح الماء بلا عناء ، حاملة الناس واثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس
كذلك أقسم بالمقسمات أمور البشر ، وهم الملائكة الذين يقسمون الارزاق
بين العباد كما أمرهم الله .

يقول البيضاوى « كأنه استدل باقتداره تعالى عليها على اقتداره على البعث
الموعود لأن من قدر على خلق هذه الأمور العجيبة النافعة ، قادر على بعث الخلق
ومجازاتهم على أعمالهم » .

وبعد أن أقسم على ذلك بهذه الأمور ، أقسم بالسماء ذات الحبك ، وهى
الطرائق المتباينة التى تبدو على صفحة السماء كطرائق الرمل أو البحر حينما تضربها
الريح أقسم بها على أن الكفار في قول مختلف ، لا رابط يربطه ولا نظام يجمعه ،
تارة يقولون : إنه ساحر وتارة يقولون : إنه شاعر ، ومرة يقولون : إنه كاهن
وأخرى يقولون إنه مجنون (١) ، وكل هذه أوصاف متباينة كطرائق السماء المختلفة
فيما بينها ، ولهذا يقول البيضاوى (٢) : « ولعل النكتة في هذا القسم تشبيه أقوالهم
في اختلافها وتباعدها ، وتنافي أغراضها ، بطرائق السماء في تباعدها واختلاف
أغراضها .

إذا علمت هذا فاستمع أيضا إلى قوله تعالى : « والعاديات (٣) ضبحا (٤) ،
فالموريات قدحا (٥) ، فالغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا (٦) ، فوسطن به جمعا (٧) ،
إن الإنسان لربه لكنود (٨) ، وأنه على ذلك لشهيد (٩) ، وإنه لحب الخير (١٠)

١ - نفى الله تعالى عنه ذلك في سورتي الحاقة والقلم .

٢ - تفسير البيضاوى (الداويات) .

٣ - العاديات : خيل الغزو .

٤ - الضبج : صوت الخيل أثناء عدوها .

٥ - الموريات قدحا : الايراء اخراج النار ، والقذح الضرب ، ومنه قدح الزناد بحجر ليودى .

٦ - النقع : الغبار .

٧ - فوسطن به جمعا : اقتحمن جيش الاعداء وفرن شمله .

٨ - الكنود : الكفور أو البخيل أو العاصى .

٩ - شهيد : شاهد على نفسه بلسان الحال .

١٠ - الغر : المراد به هنا المال قال تعالى (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية) .

لشديد . أفلا يعلم إذا بعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور ان ربهم بهم يومئذ
لخبير ؟ ، فالمقسم عليه هنا هو حال الإنسان ، وصفته التي فطر عليها ، وهي
كونه كفورا بالنعم ، ضنينا بالمال ، يمنعه حبه الشديد له من البذل والعطاء .

اقسم الله على هذا بالخليل العادية الضابحة ، والتي تقدح الأرض بخوافرها فتورى
وترمى بالشرر وتثير النقع الكثيف ، والتي تقتحم جمع الاعداء وتعود ظافرة
بنفوسهم وفضلا عن ذلك فهي في السلم مظهر العزّ والثراء ، معقود بنواصيها
الخير والنعمة ، « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وإقسام الله تعالى — على كنود الانسان وبخله — بتلك النعم التي هي من دلائل كمال
قدرته ، فيه تنبيه عليها وتذكير بها ، كما أن فيه إنذاراً لهذا النوع من البشر ،
(قتل الإنسان ما أكفره) ، فكأن الله تعالى يقول : منحتكم تلك النعم التي تستوجب
الشكر والاحسان لا البخل ، فأيتيم إلا البخل والكنود ونكران الجميل .

هذا . وربما كان القسم هنا من قبيل الإقسام بالسبب على المسبب ، فإن النعمة
كثيرا ما تغرّ وتطغى ، قال تعالى : (وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى
بجانبيه) وقال : (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) وقال : (ولو بسط الله
الرزق لعباده لبغوا في الارض) .

وغنى عن البيان أن نشير إلى أن الربط بين السبب والمسبب هنا غير لازم فمن
الناس من غمر الله قلوبهم بنور الايمان فقابلوا النعمة بالشكر ، والجميل بالعرفان
ثم ماذا ؟ ثم ولي القسم هنا تهديد ووعد ذلكم هو قوله تعالى : (أفلا يعلم اذا
بعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير) ونظيره من
القرآن قوله تعالى : (إن إلى ربك الرجعى) بعد قوله (إن الإنسان ليطغى أن رآه
استغنى) .

وعلى أية حال فان القسم بالخليل على الكنود والجحود، له ما يفسره من القرآن ،

قال تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) ففي كلتا الآيتين تذكير بالنعمة يتلوه تصريح بكنود الانسان ، وفي كلتا الحالين الخبر مؤكد باكثر من مؤكدين ، وهذا ما يقتضيه المقام .

(٢) ومن القسم الاستعطائي قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : (قال رب بما أنعمت عليّ فلن اكون ظهيرا للمجرمين) فهذا قسم محذوف الجواب والتقدير : بحق النعمة التي انعمت بها علي . وهي نعمة المغفرة — لأتوبن فلن اكون ظهيرا للمجرمين ، والقسم على هذا التفسير من قبيل التذكير ، ولكن الزمخشري أجاز أن يكون من قبيل القسم الاستعطائي كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت على من المغفرة ، فلن اكون إن عصمتني ظهيرا للمجرمين هـ (١) .

(٣) ومن القسم الذي يراد به التبرير ، أو التذكير بما يقطع المعاذير قوله تعالى : (والتين والزيتون ، وطور سينين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . فقد أقسم سبحانه وتعالى بالتين والزيتون وأراد منابتهما على سبيل التجوز ومنابت هذه الأشجار هي الارض المقدسة التي ظهر فيها المسيح عليه السلام ، وهذا هو الانسب لما بعده ، وهو القسم بالطور الذي وقف به موسى عليه السلام بين يدي ربه وكلمه تكليما فقد ناداه (يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري) وقد تعلق موسى بربه وتاقت نفسه إلى رؤيته جلّ وعلا فقال : (رب أرني انظر اليك) غير أن الله سبحانه وتعالى اشفق عليه من الرؤية التي تخر منها الجبال وتهتز لها الرواسي .

كذلك أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة أو بكة ، المكربة بالبيت الحرام ، المشرفة بالرسالة المحمدية . رسالة السلام والاسلام .

أقسم بهذه الأمكنة الثلاثة التي هي مهبط الوحي وأرض النبوة ، أقسم بها على ثلاثة أمور :

أولها : خلق الانسان في أتم خلقة وأحسن تقويم ، وذاك من الأدلة على كمال قدرته وثانيها : إنذار الكفار بأن مأواهم النار وبئس المصير .

والثالث : البشارة السارة للمؤمنين بأن لهم أجراً دائماً غير مقطوع ولا ممنون .

ولا شك ان في القسم بهذه الأمكنة المشرفة والرحاب المقدسة التي هي مشرق النور والهداية ، لا شك أن في القسم بها تذكيراً للانسان بأمر الوحي ، ومبعث الرسل ، كما أن فيه إشعاراً له بأنه يوم القيامة مجزى بعمله ، مأخوذ بما قدمت يداه (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) كل هذا بعد أن أرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة . قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقد أعذر من أنذر .

وكأنه سبحانه وتعالى يقول : لا عذر لكم عندي بعد أن ارسلت إليكم الرسل بالهدى ودين الحق ، فأناورا الطريق ، ومازوا الخبيث من الطيب ، فمن عصى من بعد ذلك فمأواه جهنم ، ومن أسلم وأطاع فله أجر غير ممنون .

(٤) ومن القسم الذي يرمى إلى التأنيب والتبكيت قوله تعالى : (يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين) فقد أقسم الله تعالى بالقرآن على صدق الرسالة المحمدية والقرآن كما نعلم ، هو المعجزة الخالدة الباقية التي أيدت الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد أن عجز العرب ، في مقام التحدى ، عن أن يأتوا بمثله ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

فإقسام الله تعالى بهذه المعجزة المؤيدة ، لإقسام بالدليل ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين بدليل القرآن ، فأخرج الدليل منخرج اليمين ، لأن المتكلم — كما يقول

الرازي (١) - إذا بدأ كلامه باليمين يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصنئ إليه تمام الإصغاء ، ويقبل على سماعه كل الإقبال ، وفضلا عن ذلك فإن في القسم بالمعجزة تذكيرا بها وتبكيئا للمكابرين المعاندين ، المصرين على الإغضاء عنها ، ونظير ذلك قوله تعالى : (أولم يكفيهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وهذا استفهام انكارى أريد به توبيخ هؤلاء المعاندين الذين طلبوا إلى الرسول الكريم أن يروا على يديه معجزة حسية كناقصة صالح ، وطوفان نوح ، ونار ابراهيم وعصا موسى .

(٥) هذا ومن القسم المشبه به على المشبه قوله تعالى (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى) . المراد بالنجم هنا الثريا وهو اسم غلب عليها ، وقيل المراد به جنس النجوم كما في قول الراعى النميرى :

فباتت تعدّ النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها

يريد النجوم التي انعكست صورها على صفحة الحساء في الجفنة الواسعة ، والنجوم من غير شك مصدر هداية سواء كان ذلك بنورها أم كان بمواقعها وتنقلها في أبراجها ومسارها في أفلاكها ، قال تعالى : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) وقال (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) .

اقسم الله تعالى بهذه النّيرات الهادية على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من آيات الله البينات إن هو إلا من وحى السماء ، حق لا شك فيه ، ورشد لا غي فيه ولا ضلال ، فهو إذاً قسم على صحة القرآن الكريم ، والقرآن بآياته مصدر هداية لمن يتلمس الصراط السوى ، وأنواره تبدد ظلمات الجهالة والضلالة وإذا فالشبه بينه وبين النجوم واضح ، والمناسبة قوية ، لا فارق بينهما إلا أن الأول

وهو القرآن مصدر الهداية المعنوية ، والثاني وهو النجوم مصدر الهداية الحسية ، ولا شك أن القادر على أحدهما قادر على الآخر ، والعاقل من يقيس ويستنبط .

ولعل مما يلزمهم الحجة أيضا، وقيمها عليهم بصورة أكثر وأقوى قوله تعالى (ما ضل صاحبكم) ولم يقل : ما ضل محمد ، ففيه الزام لهم باتباعه والايان بما جاء به إن كانوا من ذوى العدالة ، لأنه صاحبهم الذى هم أعلم الخلق به وبحالته ، وأنهم لا يعرفونه بكذب أو مين وضلال حسبه أن كان يلقب بينهم بالأمين .

(وبعد) فهذا غيض من فيض مما ورد في القرآن الكريم من إقسامه سبحانه وتعالى بالمخلوقات وقد رأينا ما وراء ذلك من مقاصد مختلفة ، وأغراض هادفة اقتضاها المقام ، ولهذا كثر في المكيات ، من السور والآيات ، حيث الكفر والشرك والعصيان ، ولا يسعنا بعد ذلك إلا أن نعود فنقول : إن الله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله ، لقوله صلى الله عليه وسلم (من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت) فهو وحده العلى العظيم ، الجدير بكل إجلال وتعظيم .